كلمة التحرير

نحو منهجية قرآنية للبحوث والدراسات

طه جابر العلواني*

حاجة الأمة إلى استجلاء معاني القرآن الكريم

إن حاجة الناس إلى الاستهداء بالقرآن الكريم لا تقتصر على الجهود المبذولة في فهم العلوم النقلية ومعارف الوحي والتعامل معها، ولكنّ هذه الحاجة تمتد لتشمل كذلك سائر العلوم والمعارف الإنسانية والاجتماعية. فقد أنزل الله –تبارك وتعالى– القرآن المجيد على عبده ورسوله محمد صلّى الله عليه وسلم ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: 89) ومنذ نزوله ورسول الله صلّى الله عليه وسلم يبين للناس الذي اختلفوا فيه بهذا الكتاب، ويجاهدهم به جهاداً كبيراً، ليحملهم على التفكير والتذكر والتلاوة والتدبر والتعقل والترتيل ليعلَمَ رافضوه والكافرون به أنَّهم كانوا كاذبين في تصوراتهم وأفكارهم، ورؤاهم ومعتقداتهم، وسلوكياتهم وتصرفاتهم وعلاقاتهم وسائر شأنهم، وليهتدي المؤمنون إلى التي هي أقوم في ذلك –كله– وفي غيره. فهو شفاءٌ لما في الصدور وهدى ورحمة، وهو "منهج" يهدي به الله من أتبع رضوانه سبل السلام، وهو نورٌ يُخرج به الله الناس من الظلمات إلى النور، وهو تزكية وتذكرة وبشرى ونذارة، وهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم.[1]

ومنذ أن لحق رسول الله صلّى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى والأمة المسلمة التي صُنعت بالقرآن على عين الله تعالى وبجهاد رسوله الأمين، والأسوة الحسنة التي قدمها والسنن التي أرسى دعائمها، والأمة تسعي جاهدة للإلمام بمعاني القرآن، وإدراك مقاصده، واستجلاء مراميه وغاياته والوصول إلى برد اليقين في فهمه

---

* رئيس المجلس الفقهي الإسلامي لأمريكا الشمالية ورئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية في فيرجينيا بالولايات المتحدة.

[1] إن هذه الأسماء والصفات لا ينبغي أن تؤخذ على أنها مناقب أو أوصاف هدفها بيان الفضيلة، بل على أنها محددات منهاجية منتجة. راجع بحثنا "علوم القرآن" (تحت الطبع)

ومعرفة تفسيره وتأويله. فأنتجت في سبيل ذلك علوم اللغة العربية وقعّدت قواعدها، ووضعت نحوها وصرفها، وأبرزت خصائصها، واستنبطت بيانها وبديعها ونثرها وأحرفها وألسنة قبائلها، والمؤتلف والمختلف فيها لتوظيف ذلك –كلّه– في استجلاء معاني ذلك القرآن، والكشف عن إعجاز ذلك البيان، والفقه فيه، ومعرفة أساليبه، والعروج إلى عليائه.

كما جمعت سنن رسول الله صلّى الله عليه وسلم وآثار الصحابة وفقههم وتفسيراتهم وتأويلاتهم، وفتاوى قرائهم لبلوغ تلك الغايات، والعروج إلى سماء تلك الآيات. فكانت حصيلة تلك الجهود أن بلغت تراكمات ذلك حد بلوغ مرحلة تأسيس وتدوين ما عرف بـ "العلوم النقلية".

لقد تتابعت الجهود في مختلف المجالات، وتنوعت الاجتهادات، وكثرت وتعدّدت المقاربات حتى تراكمت لدى الأمة مجموعة هامة وكبيرة ومتنوعة من المعارف تحولت خلال القرنين الهجريين الأول والثاني إلى علوم وفنون ومعارف وصناعة مدّونة.[2] وبقيت مدارس علماء الأمة تضيف عليها، وتحذف منها، وتطور فيها، وتتوسع في قضاياها حتى بلغت حداً من التكامل في مشارف نهايات القرن الرابع الهجري؛ وهنا استوت على سوقها وعُرفت مبادئها، واستقرت وسائلها، وتمايزت مقاصدها عن وسائلها، واستقل كل منها بشيء من ذلك، فكانت أحد عشر علماً، ما بين علوم وسائلية، مثل علوم اللغة والمنطق، وعلوم مقاصدية مثل علوم التفسير والحديث، والأصول والفقه والتوحيد، وذلك بقطع النظر عن تفرعاتها وشعبها الداخلية، وأنواع المعارف التي أخذ بعضها في حجز بعض حتى تجاوز عددها في القرن السادس وما تلاه مائة علم وفن.[3]

فهل أوصلت هذه العلوم والفنون والمعارف الأمة إلى غاياتها في القرآن؟ وبغيتها منه؟

الجواب أن كل تلك الجهود قد حوّمت بالأمة حول بعض شواطئ ذلك الكتاب المجيد، المكنون، وقدمت شيئاً من الفوائد، ولكنها قد قصرت عن الإلمام "بمطلق الكتاب" إذ هيمنت نسبيَّة البشر على ذلك

---

[2] يذكر الذهبي في تاريخ الإسلام، ثم السيوطي في تاريخ الخلفاء أن هذه المعارف قد بدأ تدوينها رسميًا عام 143 هـ.

[3] على ما في موسوعة الإمام الرازي المتوفى 60هـ، ويراجع في ذلك بحثنا الذي لم ينشر عن فخر الدين الرازي: حياته، شيوخه، ومؤلفاته. وكذلك يراجع تصنيف العلوم للكندي، والفارابي، وابن حزم، وابن الساعي الأكفاني، وطاش كبرى زادة، وكذلك كتب المتأخرين أمثال أبجد العلوم ونحوها، فتلك الكتب والدراسات مفيدة في معرفة ذلك.

"المطلق" وقيدته إلى مدركاتها الظرفيّة ومحدَّداتها الزمانيَّة والمكانيَّة، وسقوفها المعرفيّة، وقاسته على الكتب التي سبقته من بعض الوجوه، فأدى ذلك كله إلى بروز تفسيرات متضاربة، وتأويلات متناقضة، وفقه مختلف، وكلام معتسف، وأصول تمازجت بالفروع، وتحولت الوسائل اللغوية إلى مقاصد، بحيث صارت تتحكم أحياناً في لغة القرآن، وصارت تلك المعارف مقصودة لذاتها، أو مرجعيات بديلة يستغنى بالرجوع إليها عن الرجوع إلى القرآن إلا على سبيل الاستشهاد. واتخذت السنن النبوية —بدورها— معضدات وشواهد ساندات لما سبره السابرون[4] وأصّله المؤصلون لتلك المعارف والعلوم.

وإذ حجبت تلك المعارف أنوار "إطلاق القرآن" وفككت وحدته البنائيّة تفككت معها "وحدة الأمة" وتفكك ائتلافها، وتناثر جمعها، وانحطت إلى مستوى التمزق الطائفي، والتشتت المذهبي. كما أن بعض هذه المعارف تجاوزت مع بُعد "الإطلاق" بُعد "العالمية في الخطاب القرآني" وفسرته كما لو كان خطاباً قومياً منحصراً في قوم أو محيط جغرافي محدّد أو فترة تاريخية معينة مما فتح أبواباً كثيرة لطعن الطاعنين، وتحريف الغالين، وتأويلات الجاهلين، وانتحالات المبطلين.[5]

ومع تجاوز "إطلاق الكتاب" و"عالميّة الخطاب القرآني" اختفى بُعد "حاكمية الكتاب" كما انزوت خصائص الشريعة التي أكدتها الآيات ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ

---

[4] يراجع البرهان لإمام الحرمين الجويني، الفقرة 1535، وقارن ب 1548 . وتاريخ التشريع للخضري، وكتاب عياضة السلمي "استدلال الأصوليين بالكتاب والسنة، حيث أوضح كيف كان جمهرة الأصوليين يتخذون من أدلة الكتاب والسنة في الأعم الأغلب معضدات لما يتوصلون إليه. وكذلك المحصول بتحقيقنا في مباحث التقليد.

[5] يراجع كتاب القاضي الباقلاني المخطوط "الانتصار لنقل القرآن" الذي يكاد يستقرئ فيه شبهات أهل زمانه في هذا المجال، وكذلك مختصره المطبوع للصيرفي المسمى "بالنكت". ولمعرفة الآثار الخطيرة لتجاهل وتجاوز "المحددات المنهاجية للقرآن وعدم الوعي بها تراجع دراستنا "أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية" طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: 156-158). ولم يبرز لتلك المحدّدات المنهاجية الأثر الذي ينبغي أن يظهر في تلك المعارف، وينعكس على تلك العلوم والفنون، ويسدد مسيرتها.

ولتتجاوز "الأمة القطب" ثم العالم من بعدها الأزمات الفكرية والثقافية، والصراعات والتناقضات الطائفية والأممية، لابد من ابتغاء القرآن المجيد، والعروج إلى عليائه من جديد، والتعامل معه من ذات المنطلقات التي كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم يتعامل معه بها باعتباره كلام الله -بارك وتعالى- المطلق والمصدق والمهيمن والحاكم على كل ما عداه، وهو الخطاب العالمي النازل بالشريعة السمحاء التي نفت عن الناس الحرج، وأحلت لهم الطيبات، وحرمت عليهم الخبائث، ووضعت عنهم الإصر والأغلال: فكانت رحمة للعالمين وتخفيفاً عن الناس أجمعين إلى يوم الدين. والقرآن مهيمن على ما سبق بخاتميته، ومهيمن على ما لحق بإطلاقه وحاكميته، ومصدق على كل ما عداه بشموله وإحاطته.

وبهذه العودة الصادقة المخلصة التامة إلى القرآن المكنون يمكن أن تبدأ مسيرتنا الكبرى وانطلاقتنا الشاملة لتأسيس "البديل الحضاري الإسلامي العالمي" القائم على الهدى والحق إن شاء الله تعالى. وبدون تلك الرجعة الصادقة المخلصة إلى رحاب القرآن فإنه لا أمل للبشرية -كلها- ولا مخرج لها مما تتردى فيه، ولن تزيد حالتها الفوضوية إلا سوءاً وتدهوراً، وآنذاك "لن يُبْك ميت، ولن يفرح بمولود".

البحث عن الخلاص

إن نقطة البداية أو الانطلاق نحو بناء "البديل الحضاري الإسلامي العالمي" تكمن في محاولة فهم الحالة الراهنة لأمتنا وللعالم من حولها، هذا العالم الذي صار يؤثر في كل شيء فيها، فيتدخل في سياساتها واقتصادها، بل وطرائق تعليمها وتدريبها وتربيتها، بحيث صار يختار لها ما تقرأ وما تدرس وما تسمع وما ترى، ولسان حاله يقول ما قال فرعون ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر: 29).

هنا نحتاج إلى تدبر ما يلي:

1. **الخلاص اللاهوتي**: إن دراسات الدارسين والباحثين "للمآسي الإنسانية الراهنة" و"للأزمة العالمية الحالية" تزداد كثافة وظلاماً عبر الأيام تشخصها الدارسات الدينية اليهودية والنصرانية بل والإسلامية مضافاً إليها البوذية والكنفوشيوية والشنتو وما إليها بأنها مأساة سببها "الانحراف عن الدين" وكل دين –هنا– يعني بالانحراف عن الدين الانحراف عنه، وكل دين بمفهومه المستقل يعتبر التدين بالأديان الأخرى مظهراً من مظاهر الانحراف عن الدين كذلك. وإن هذا الانحراف يغضب الخالق –تبارك وتعالى– فيحل على البشر ذلك الغضب بشكل "لعنة" في مفهوم بعض الأديان، أو في شكل بلاء وعذاب في نظر البعض الآخر، ولعل ذلك ينبههم فيرجعون عن ذنوبهم وخطاياهم وانحرافاتهم فترجع اللعنة أو تنتهي المأساة. ولا شك أن لهذا التصور ما يدل عليه، ولهذا التفسير للمأساة الإنسانية ما يعززه، ولكن كيف يصاغ ذلك؟

إن لهذا التفسير عدة صياغات أهمها الصياغة "العمرانية" ولكن هذه الصياغة لا يقف الباحثون عندها طويلاً، وإن فعلوا فإنهم يمسُّون بعض أجزائها من اقتصاد أو سياسة أو اجتماع أو تربية أو أخلاق، وحتى أولئك الذين يلاحظونها في مجملها فإنهم لا يتناولونها التناول الشامل، ولا يربطون بإحكام بينها وبين الدين، والتوحيد خاصةً باعتباره أساساً ومنطلقاً للإيمان والعمران.

ولذلك فقد غلبت الصياغة "اللاهوتية" في التفسير وفي اقتراح الخلاص لاهوتياً كذلك، والصياغة "اللاهوتية" من شأنها أن تخلط في الكثير الغالب بين ما هو وحي إلهي منزل، صادر عن الإله الأزلي الواحد الذي أعطاه أقصى درجات الإطلاق والإحكام، وما بين نسبية البشر من مفسرين ومؤولين، ولغويين تتحكم بيئاتهم التاريخية في المنتج المعرفي الذي يصلون إليه أو يستنبطونه مهما حاولوا التجرد في مقاربتهم للنصوص الموحاة، حيث إن هناك الكثير من المؤثرات التي تحيط بالباحث قد لا يتنبه إليها، لكنه لا يستطيع التحرر منها لأنها مثبتة في الثقافة، ومترسخة كامنة في التقاليد والأعراف، والمدلولات اللغوية، وما إليها، إضافة إلى تداخل الموروثات الدينية ببعضها، هذه التداخلات التي تصل أحياناً حد صعوبة التمييز بينها، فالموروث المسيحي وتداخله مع الموروث اليهودي لا يحتاج من يريد إثبات ذلك فيه إلى كبير عناء، فالعهدان القديم والجديد يمثلان لدى "البيورتان"[6] المتطهرين مرجعاً واحداً، ولذلك فإنهم يفضلون أن يطلقوا على أنفسهم أنهم

[6] البيوريتان puritans أولئك المتدينون الأصوليون البيض الذين هيمنت على عقولهم في القرن السادس عشر فكرة الاتحاد أو التداخل بين الأساسيات اليهودية والمسيحية فاعتبروا أنفسهم جزءًا من شعب الله المختار، وأن ملك بريطانيا الذي اضطهد بعضهم هو فرعون

"اليهود المسيحيون" وقد حجبت هذه التداخلات الموروثة والمتعاقبة الكثير من الفوارق المنهجية بين الأديان، ومنها تراث المسلمين الذي تداخلت معه وفيه كثير من "الإسرائيليات" بحيث أصبح ذلك جزءاً يصعب تمييزه عن تراث المسلمين الذي بُني حول "الخطاب القرآني"، ومع أن القرآن قد قام بنقد ذلك التراث وتمحيصه ثم التصديق عليه والهيمنة على جوانبه –كلها– لتصحيح مسار الدين عقيدة وعبادة وشريعة ونظام سلوك وأخلاق ومعاملات. بيد أن تفسيرات أهل التفسير وتأويلات أهل التأويل قد ضمت الكثير من التراث لأسباب عديدة لا يتسع المجال لتفصيلها لعل من أهمها توهم التشابه بين موضوعات وقضايا "الخطاب القرآني" وموضوعات الكتب الأخرى، فأسقطت على تفسيره وتأويلاته الاتجاهات التلمودية واللاهوتية في التفسير والتأويل، ظناً من المفسرين والمؤولين أن التشابه في الموضوع يسوغ التشابه في التفسير والتأويل.

إن تجريد "الخطاب القرآني" مما لحق به، وكذلك نصوص الكتب السابقة صار يتطلب جهداً معرفياً كبيراً ومتنوعاً.

إن هذا البناء المشوب للفكر الديني الذي لم يسلم دين من الأديان من آثاره أدى إلى خلافات خطيرة سرعان ما تحولت إلى صراعات فكرية مذهبية وطائفية ودينية بين حملة الأديان المختلفة، وانقسامات داخل أهل الدين الواحد، وانشطارات داخل الفرق والطوائف، فإذا أضيف إلى ذلك ما سنأتي على توضيح بعض معالمه من تفكيك "الحداثة وما بعد الحداثة" للمسلمات الدينية نستطيع أن ندرك –آنذاك– أن خروج الإنسان من الأزمات، وتجاوزه للمآسي المحيطة به، وخلاصه من ذلك –كله– لم يعد من الممكن أن يكون خلاصاً دينياً لاهوتياً، بل يمكن القول بأن بعض "التراث الديني" قد صار معرقلاً ومعيقاً لأية وسائل خلاص، إن وجدت، لا على المستوى العالمي، ولا على المستوى المحلي، أو الإقليمي.

2. **الخلاص الديمقراطي**: وإذا كانت "الصياغات اللاهوتية" لمعالجة الأزمات الإنسانية لم تعد قادرة إلا على الإضافة إليها والزيادة فيها، فإنّ الذين حصروا الخلاص الإنساني بتحويل الإنسان نفسه إلى "مركز

الجديد "جيمس الأول" وبريطانيا الجديدة، وأمريكا أو العالم الجديد هي أرض الميعاد الجديدة، والمحيط الذي عبروا إليه هو البحر الأحمر الذي انفلق لعبورهم.

الكون" يتمركز حول نفسه ويجعل منه ذاتاً ومن كل ما عداها هامشاً لن يكونوا أقل عجزاً عن مواجهة هذه الأزمات الإنسانية والمآسي المترتبة عليها من حملة اللاهوت والفكر المنبثق عنه.

فالنزعة الوضعية positivism قد حالت دون إيجاد حلول للأزمات الإنسانية، فقد قاوم الوضعيون كل ما هو غيبي باعتباره غير مرئي، وغير قابل للإدراك، حتى وجود الخالق رفضوه للسبب نفسه، كما رفضوا كل ما هو فوق الطبيعة أو ما يعد "ما ورائياً" لا يخضع للتجربة، ولا يدرك بالحس؛ فهم يمثلون رد فعل متطرف ضد الاستلاب اللاهوتي أو الديني بصفة عامة، وتحت هذا النوع من الضغط حصروا خلاص الإنسان في دائرة ذاته، أو في دائرة "الجدلية المادية" وما رتبوه عليها من حتميات تاريخية.

وهؤلاء بعد أن ركزوا على تعليق قضايا الخلاص الإنساني للذات الإنسانية حول نفسها، سارعوا تبني "الليبرالية liberalism" إطاراً لإطلاق حيوانية الإنسان وإشباع رغباته كلها دون قيود فاستظهرت الليبرالية وتأصلت بـ "الفردية individualism" ثم سُوِّغت "الفردية" بـ "النفعية utilitarianism" واصلت "النفعية" بالنزعة "الأدائية والأداتيّة أو العملية" واتخذت هذه النزعة الآلية أو "الأداتية instrumentalism" نهجاً لتحقيقها.

وأمام مضاعفات "إطلاق الفردية" وما أدت إليه من تفكيك وصراعات برزت "الديمقراطية democracy" باعتبارها حلاً موهوماً أو مفترضاً في مجال "تقنين الصراع" واستيعاب القوى الجديدة، التي يفرزها المجتمع، فلم تكن "الديمقراطية" وليس من طبيعتها أن تكون حلاً للأزمات الإنسانية أو وسيلة للقضاء على الصراعات، وتوجيه البشرية للدخول في السلم كافة في سائر جوانب نظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية؛ إذ أن مهمتها الحيلولة دون تفجر العلاقات بين أبناء المجتمع الواحد، واحتواء التناقضات بين فئاته وعناصره من خلال تقنين الصراع، واستيعاب القوى الجديدة في المجتمع، وبذلك تحول الإنسان من خلال "الديمقراطية" إلى أداة إنتاج واستهلاك يدار –ديمقراطياً– وبرضاه التام بوساطة طبقة مهيمنة متعالية تتبادل هذه الإدارة بشكل يستلفت النظر، وباعتبارها أحزاباً سياسية أوجدتها الشعوب للتعبير عن إرادتها. وإن كانت قد انبثقت في بادئ الأمر عن الشركات الكبرى. وبذلك تحول "المذهب الإنساني" الذي أقيم على "مركزية الإنسان" إلى مجرد شكل أو شعار زاد في مآسي الإنسان ومعاناته، وجعله يدور حول

ذاته منقطعاً عن ربه، وعن محيطه وجذوره، فاقداً لكل ما كان يمكن أن يربطه بكينونته الإنسانية أو علاقاته العائلية أو تاريخه أو جذوره الحضارية.

وبذلك وجد الإنسان نفسه يتخبط في "عبثية وجودية" تلقي به إلى مجاهل "الفراغ العدمي" الذي جعله لا يبالي بشيء ولا يهمه أن يدرك شيئاً، فهو لا يدري أكثر من أنه لا يدري، إذا توافر له الطعام والجنس.

شخصية مثل هذه إن كانت قد بقي لها من مكونات الشخصية أو الكينونة الإنسانية شيء فهي مستلبة الوجود تماماً، لذلك فقد جعلت الأنظمة منه حيواناً إعلامياً تفرغه من مقومات كينونته، وعناصر شخصيته لتشخصه إعلامياً بكل ما لديها من وسائل وأجهزة إعلامية، فهو لا يشحن تربوياً ولا حضارياً ويسخر بالإعلام لخدمة النظام والأيدي الظاهرة والخفية فيه التي يدار بها. فهو إنسان يدور بين ساقية الإنتاج والاستهلاك وقيادة الإعلام أينما توجهه لا يأت بخير، ويخيل إليه أنه شريك فعلي أو مساهم حقيقي في القرار السياسي من خلال ذلك الصوت الذي يدلي به في مواسم الانتخابات. وحين تجد الطبقة المتحكمة ضرورة لتجاوزه فما أكثر الطرق التي تستطيع أن تسلكها لتحقيق ذلك! والوضع الأمريكي الراهن نموذج لذلك. حيث جرى تمرير الكثير من الإجراءات والقوانين تحت ضغط الماكينة الإعلامية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001، وما كان لشيء منها أن يمر لولا ذلك.

3. **الخلاص البروليتاري**: هناك الفريق الثالث الذين اختاروا للخلاص الإنساني سبيلاً آخر وتوهموا وجوده في دائرة "الحتميات التاريخية" و"المادية الجدلية" التي زعموا أنهم اكتشفوها والتي تمر من أقنية "الصراع الطبقي" وهؤلاء لم يكونوا أقل استلاباً للإنسان من الآخرين الليبراليين والرأسماليين؛ فقد جردوا الإنسان – كذلك– من كينونته ووضعوه في إطار نمطية أحادية مبوتقة لا تتصل بتاريخ الإنسان ولا واقعه ولا مستقبله إلا من خلال الحزب المعبر عن مصالح الشعوب في إطار الطبقة والحزب وحده، وقد قطعت علاقة إنسانها بالتاريخ كله وبالحضارات الإنسانية كافة، وجعلتها علاقة رفض ولعن وتحقير لها، فكلها حضارات طبقية لم تأخذ الشغيلة فيها نصيباً، وكل تلك الحضارات حضارات صنعها الجلادون وأعداء الشعوب، والإقطاعيون، ومن إليهم من البرجوازيين. وكل دين هو أفيون لتحرير الشعوب، فتجب محاصرة الأديان والقضاء عليها،

وتحويل معابدها إلى ملاه ومراقص، ومتاحف إن أمكن، ويمكن للفنون أن تلبي الحاجات النفسية والروحية لمن يجد في نفسه حاجة لذلك. وبلا موارية وبعد خمس وسبعين عاماً أعلن أصحاب هذه الأطروحة موتها وفشلها. وارتدت تلك "الحتميَّات التاريخيَّة" و "الماديّة الجدليَّة" على أصحابها بالخسران والخذلان، وتفكك الحزب والإمبراطورية التي أقامها، قبل أن يبني الحزب جنته الأرضية ليعيش فيها مجتمع الرفاهية. وحين تهاوت تلك الأطروحة سرعان ما عادت إلى الظهور داخل الاتحاد السوفيتي المقبور العصبيات القومية، والأصول العرقية والطائفية والدينية لتعلن أن النظريات التي قامت على "المادية الجدلية" و"الحتميات التاريخية" لم تستطع استئصالها أو تغييرها لكنها كمنت تحت سيف القهر، وحين وجدت فرصة للظهور المجدّد لم تتردد في اغتنامها لتعلن أنها كانت أقوى من تلك النظريَّات التي زعم أنها نظريات خلاص.

ماذا عن سبيل الخلاص لأمتنا؟

إن شعوب أمتنا في جملتها تصنف فيما يعرف بـ "العالم الثالث" على تفاوت محدود في تلك الثالثية. والأزمات والمآسي التي ترزح تحتها تمثل ضعف ما يجتاح عالم اليوم من مآسٍ وأزمات، ذلك أنها ترزح تحت مشكلات عالم ما قبل الصناعة التي ترجع إلى ما يعرف بـ "التخلف" فهي أكثر شعوب العالم تخلفاً بمعايير التقدم الصناعي والتقني والعلمي والتنموي. كما أنها لم تنس نصيبها من أزماتها الخاصة بها التي تحدرت إليها من ماضيها وبعض الجوانب السلبية من تراثها. ولم يخفف من وطأة تلك الأزمات ماضيها المجيد ولا كونها صانعة الحضارات الإنسانية التاريخية في وادي الرافدين ووادي النيل وبلاد الشام والصين والهند وفارس واليمن. وإنها –بعد الإسلام– قد قدمت حضارة كان لها أثرها الحميد في تسديد مسيرة البشرية وإرساء الدعائم التي مهدت لهذه الحضارة التي صارت تعرف بـ " الغربية".

إننا نقولها وكلنا حسرة: إن أمتنا في حالة سبات عميق لم تستيقظ منه بعد، ولم تسلك للنهوض سبيلاً، ولا تزال عاجزة عن الفعل، وتعيش حالة "ردود الأفعال" الناجمة عن الصدمات التي تصنعها وتبلورها الحضارة القائمة الأوربية–الأمريكية، ولم ترتق بعد إلى حالة "الفعل"؛ إذ لم تتوافر فيها شروط الفعل بعد، ففقدت الفاعلية. وقياداتها –بمستوياتها المختلفة– أفرزتها تلك الصدمات: فكانت قشرة أو فئة أو طبقة فوقية صغيرة

توزعت وانتمت إلى الخيارات الغربية في الخلاص في خارطتها العامة: فكان منها الليبرالي والماركسي والرأسمالي والثوري والاشتراكي والانقلابي العسكري، أو الانقلابي الحزبي، وكذلك الدكتاتوري.

فكانت تلك الخيارات منبتَّة منقطعة زادت في أزمات الأمة، فهي لم تنبع من تفاعل مبدع مع قضايا الأمة، وجُلّ ما حدث في داخل تلك المجتمعات وانبثق عنها لم يكن من الفاعلية بحيث يؤدي إلى تطوير طبيعي فيها فبقيت حتى اليوم في افتقار شديد للقواعد الفكرية والاجتماعية والاقتصادية لتستند إليها وتبلور تجاربها، وتفجر طاقاتها، وتنمي أفكارها، وتنتقل بها إلى حالة الإبداع الضرورية لأية نهضة.

وقد عانت مجتمعاتنا ولا تزال تعاني من التناقض الحاد بين القيم الغربية التي أفرزتها الحضارة الغربية المهيمنة، وعملت النخب الفوقية الحاكمة والمساعدة لها على غرسها وتبنيها وفرضها من علٍ على مجتمعاتنا[7] وبين مؤثرات وبقايا الأنساق الحضارية المغايرة، والموروثات الإيديولوجية والإدراكية المتأصلة في ثقافتها، بحيث صارت ثقافة وأعرافاً وتقاليد ليس من اليسير على شعب مفارقتها بالأوامر والإجراءات الفوقية، وهم يحاولون الآن استيعاب الأمة واحتواءها في إطار "العولمة" المعاصرة ليفرضوا عليها خيارات الخلاص وفق مقاييس ومواصفات هذه العولمة المعاصرة التي تقودها أمريكا، وذلك بعد أن فرضوا عليها عولمة سابقة قادها الاستعمار الأوربي التقليدي فأدخلت إليها ليبرالية زائفة انتهت بدكتاتوريات الأحزاب والعسكر والقبائل. وشرّعت للعسف والاضطهاد بألوانه المختلفة.

إن "العولمة" المعاصرة وإن بدت كما لو كانت عولمة اقتصادية فقط –لكنها– في الواقع تعني –هذه المرة– الإستتباع والإلحاق بنظام عالمي له مؤسساته الدولية سياسيّاً واقتصاديّاً وأمنيّاً وتربويّاً وفكريّاً وحضاريّاً بل والدينية كذلك. وقد منحت هذه المؤسسات للعولمة شرعيتها، وأخذت من هذه المؤسسات تفويضاً تاماً بتغيير قيم العالم ونظمه وقياداته، بل صارت هذه المؤسسات أداتها ووسيلتها في إحداث تلك التغييرات القسرية.

[7] إن عمليات "التحديث" في مجتمعاتنا كانت وسائل تدمير لبناها التحتية، وبعض المتبقي لديها من قيم موروثة، وفشلها لم يعد يحتاج إلى دليل، وهذه – وحدها – تحتاج إلى جملة من الدراسات لتكشف عما لحق بالأمة من خسائر وآثار خطيرة نتيجة تلك العلميات التحديثية المرتجلة.

ولم تعد "العولمة المعاصرة" تقبل من الآخرين مجرد القبول بها، أو الانفتاح عليها، ثم التداخل الاقتصادي معها، لكنها تصر على أن تعيد تشكيل أنظمة الشعوب والأمم الأخرى على صورتها، وتلحقها بها إلحاقاً عضوياً ليكون "الاستتباع" كاملاً غير منقوص لا يفرق فيه بين السياسي والاقتصادي والتعليمي والثقافي والفني والحضاري. وعمليات الاستتباع الثقافي والحضاري لا ترحم، ولا توفر صغيرة أو كبيرة من موروثات الشعوب الحضارية والمعرفية خاصة تلك الموروثات التي تقرر قيادة العولمة أنها قد تشكل عقبات ربما قد تحول دون تقبل هذه الشعوب لعمليات الاندماج في العولمة، ويتم هذا الاحتواء بعمليات جراحية بسيطة تدعى "عمليات صراع الحضارات أو صدامها" ومنطق أو صدام الحضارات أو صراعها لا يفرق بين حضارة مصروعة وحضارة قائمة ما دام لها بشر لا يزالون يعلنون الانتماء إليها. ويتظافر مع صراع أو صدام الحضارات أطروحات أخرى فرعية كثيرة نعايشها اليوم في كل أنحاء العالم، وسيؤدي ذلك إلى كله إلى احتواء ليبرالي لهذه الحضارات والثقافات وشعوبها، وذلك لأن منطق الليبرالية جعلها تؤمن بأنَّها "نهاية التاريخ".

والخطر الداهم –الآن– أن شعوبنا لا تملك –الآن– سوى تراثها وموروثها الحضاري والديني المنحدر إليها من أسلافها، والذي صاغه الأسلاف بطرائق إدراك ومعرفة خاصة عائدة إلى المكونات التاريخية لذلك الموروث، وهو في سائر الأحوال له وعليه، وهنا مكمن الخطر إذ ستجد الأمة نفسها مسوقة دون اختيار للاحتماء بموروثاتها الحضارية والمذهبية والثقافية والأيديولوجية دفاعاً عن النفس، ودون تمييز أو نقد أو تجديد أو تمحيص، وهنا سوف تدخل الأمة في حالة تعصب بالحق وغيره لموروثاتها، وهذه الحالة تجعلها في نظر العولمة أكثر تطرفاً وأصولية أو إرهابية إن أمكن هذا من وجهة نظرهم هم.

أما من وجهة نظرنا فإن الخطر في ذلك الارتداد غير المنظم إلى الماضي هو أن شعوبنا في رجعتها هذه إلى الموروث سوف تجمد سائر حواس النقد ووسائله –إن وجدت– وتوقف أية ممارسات تجديدية داخلية إذ لا صوت يعلو حينئذ على صوت معركة الدفاع عن النفس: فتصبح محاولات "التجديد النوعي الداخلي" على ضعفها وقلتها بدعة من البدع أو تواطأ مع قيادة العولمة وفي أقل الأحوال تبعيَّة واستحساناً لبدائل العولمة: وتفقد الشعوب آنذاك القدرة على التمييز بين عناصر التحصن الداخلي، وقوى الهجوم الخارجي فتدخل حالة "الفتنة التي تذر الحليم حيراناً".

وهكذا تبدو مشكلة "الخلاص الإنساني" أزمة مستفحلة وشاملة للمتقدم وللمتخلف، فللتقدم أزماته وللتخلف أزماته كذلك. ويستوي في العجز عن تحقيق "الخلاص الإنسانيّ" الفريقان الفاعل والمنفعل.

لا شك أن العلم قد تقدم كثيراً، وتطور وارتاد آفاقاً تجاوزت الطموح الإنساني، وقد أصبح على مشارف اكتشاف "الكونية" بكينونتها وعناصرها، ولا شك أن "الكونية" تحمل الحل، لكن البيئة الغربية الأمريكية والأوربية التي يعيش العلم ويتطور فيها وفي مؤسساتها لم تمكنه من الكشف عن القيمة الكونية للإنسان، والقيمة الإلهية للوجود.

واللاهوت لم يمارس تجديداً نوعياً يمكنه من المساعدة على ذلك، والإسلام لم يكتشفوه بعد إلا من خلال أنظمة مهترئة، ولا يزالون يتعايشون مع تاريخ المسلمين أثناء الحروب الصليبية، وحروب الدولة العثمانية والأندلس، ويقيسون الإسلام على ذلك. وحاضر العالم الإسلامي لم يتمكن ولم يسمح لأسباب كثيرة بصياغة "الخطاب الإسلامي التجديدي" ولا يملك القدرة على ذلك. وقد لا يرى الكثير من الدعاة ضرورة لذلك التجديد النوعي، فلا غرابة أن يلجأ العديد من اللاهوتيين في الغرب إلى الترويج للعودة الثانية للسيد المسيح، وقد يحدد بعضهم سنة سبع بعد الألفين موعداً لنزوله، أو ما بين سبع وتسع احتياطاً لينتهي التاريخ، في حين يسود شعور في بعض الأوساط الإسلامية بأن المهدي قد أطل موعد ظهوره، وأن ذلك قد يكون عام 2005، وهكذا تتظاهر المتداخلات بين الأديان على تدعيم وتعزيز أفكار مشتركة في الجذور وأن اختلفت في المظاهر والانعكاسات والتأثيرات.

أين الخلاص؟

لقد تبين مما قدمنا أن العالم –كله– اليوم يبحث عن "الخلاص الكليّ"، وهذا "الخلاص الكليّ" يتعذر أن تأتي به القوميّة العنصريّة أو الطبقيّة أو الحزبيّة أو الإقليميّة أو اللاهوتيّة المتعصبة أو الليبراليّة، أو الجدلية الماديّة والصراع الطبقي والحتميات التاريخية، أو أي طرح حصري أو أحادي ذاتي التكوين. ولا يمكن أن تأتي به "العولمة" في طرحها الحالي: فالوضع العالمي الراهن لا يمكن أن يتقبل إلا حلولاً وبدائل قادرة على تقديم نفسها عالمياً؛ وفي الوقت نفسه تكون قادرة على استيعاب وتجاوز فلسفات الأرض ومناهجها كافة، وليس

هناك مصدر غير القرآن الكريم المحفوظ، المكنون الهادي للتي هي أقوم يستطيع تحقيق هذين البعدين —معاً— أعني عالمية الحلول والبدائل والمعالجات وشمولية المنهج المعرفيّ.

فالقرآن بخصائصه –ولا مصدر سواه– يستطيع أن يقوم بالتصديق والمراجعة ثم الهيمنة على سائر المناهج المطروحة، وإعادة صياغاتها ضمن منهجه الكوني. والقرآن –وحده– وبتصديقه وهيمنته قادر على استيعاب تلك المناهج وإصلاحها وتنقيتها وترقيتها ثم تجاوزها إيجابياً دون الوقوع في شراك خصومة لاهوتية سلبية، وبهذا الاستيعاب والتجاوز الإيجابي يعالج القرآن بمنهجيته القائمة على "الجمع بين القراءتين" مشكلات الوجود الإنساني وأزماته الفكرية والحضارية.

إن القرآن لا يمسه إلا المطهرون، والمطهرون هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، وعهد الله لا ينال الظالمين، والسماوات والأرض ما خلقا باطلاً "ما خلقناهما إلا بالحق" والإنسان بالغاً ما بلغ فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلقه ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (غافر: 57). وليعطينا القرآن بعضه لا بد أن نعطيه نفوسنا وعقولنا وقلوبنا كلها، ولا بد من تحقيق عدة أمور تمهيدية قبل الولوج إلى رحابه:

الأول: تجريد وتنقية وحيه من سائر آثار النسبية البشرية التي أحاطت بمطلقه، وحجبت أنواره، وأخضعته لوعيها الذاتيّ، وحكمت عليه بتاريخانيَّتها، وحكَّمت بمحكمه أيديولوجيّاتها وثقافاتها وأعرافها وتقاليدها، وقاموسها اللغوي. فإذا لم نجرد "آيات الذكر الحكيم" من ذلك –كله– ونعيد قراءته بنور القراءتين المذكورتين في بداية نزوله وأوائل آياته: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: 1–5)، فإننا لن نتمكن من فهمه معرفياً، ولن نتمكن من تحليل آياته وتثويرها واستنطاقها، وإذا لم نصل لهذا فلن نستطيع أن نستوعب ونتجاوز به مناهج العلوم المعاصرة، بحيث نتمكن من إعادة توظيفها في إطار "الكونية" لأن ذلك –وحده– هو الذي سيساعدنا على إعادة بناء وصياغة العقل الإنساني انطلاقاً من: التوحيد والتزكية والعمران صياغة كونية إلهية.

الثاني: التزام بالأمانة مع القرآن فكرياً ونفسياً فلا ندخل إلى عالم القرآن بحثاً عن شواهد لأفكار بنيناها، ومبادئ وضعناها خارجة؛ لأن المطلوب أن تبدأ حركة التغيير بالقرآن من داخل النفس فإذا تهيأت

النفس وانفعلت به انعكس استعدادها وتهيؤها وانفعالها بالإصلاح على ما حولها وتنداح دوائر الإصلاح – آنذاك– حتى تصبح استعداداً وتهيئاً على مستوى جماعي، وذلك أقوى بكثير من إصلاحات فكر النهضة، وإن كان فكر النهضة اجتهاداً صدر من أهله، كما أنه أعمق من تحولات الأفكار الثورية، وأكثر فاعلية من سائر التنظيمات.

أما ما درج عليه المعاصرون من الاهتمام والتركيز على الحشد العددي، والتجميع الكمي دون فكر قرآني، ودون منهج صارم قرآني كذلك، والتصرف بعيداً عن منطلقات التغيير من داخل النفس، فإن ما يفعلون لا يعدو أن يكون سياسياً مشروعاً قد يؤدي إلى تسلط أو وصول إلى سلطة كلياً أو جزئياً، لكن لا يؤدي إلى تغيير بالقرآن لما في النفس والمجتمع وجهاد به. والله لا يعطي عهده للظالمين، ولا للذين يريدون علواً في الأرض أو فساداً أو أولئك الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، إذ أن نصيب هؤلاء الخضوع إلى سنة "الصرف عن آيات الله" ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: 146) وأعمال هؤلاء لا قيمة لها ولا أثر في بناء العمران أو صناعة التاريخ إلا الآثار السلبية، فهي أعمال حكم عليها بعدم الفاعلية التامة وبفقدانها لأية آثار عمرانية؛ فهي كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً، كما أنها أعمال محكوم عليها بالحبوط.

الثالث: الدخول إليه بعد فهم "الأزمة" وإدراك أبعادها، والإلمام بتعقيداتها، والإيمان بقدرة القرآن المجيد على إيجاد حل مناسب لها، وأن لا مصدر غير القرآن يستطيع أن يقدم العلاج الشافي فيها. ولذلك فلابد من الأطراح على أعتاب القرآن أطراح المفتقر، المدرك لتجرده من كل طول وحول إلا بالله–تعالى– وكلماته.

الرابع: إدراك "الخصائص الذاتية" للأمة القطب أو للأمة المنطلق التي يراد لها أن تكون ميدان الإصلاح والتغيير الأول، وقاعدة الانطلاق باتجاه "العالم والعالمية" وفي الحالة التي نحن فيها فإن "المنطلق" هو الأمة المسلمة ما دامت لم تخضع بعد لسنة "الاستبدال" بإيجاد أمة مسلمة بديلة عنها، وخصائص المسلم الذاتية التي غرسها الإسلام فيه هي الخصائص التي لابد أن تظهر في محيط الأمة، وتتحول إلى ثقافات وأعراف سائدة.

إن خطاب الإصلاح والتغيير الذي جرى تكوين المسلم بمقتضاه خطاب قرآنيٌّ، فهو يتجه بشكل مباشر هادف إلى الإنسان في كينونته الكاملة عقلاً ونفساً ووجداناً وعاطفةً، فهو خطاب لا بد أن يبدأ بالإنسان ذاته ونفسه في إطار الأمة من غير انحراف نحو عرق أو طبقة أو لاهوت أو ما إليها، فإنها –كلها– تتنافى مع مكونات هذا الإنسان وخصائصه، ولا يمكن لأي نوع من أنواع الخطاب الأخرى التي تمت صياغاتها قديماً أو حديثاً في أمريكا وأوربا وروسيا والصين وسواها أن تشكل منظومة دوافع الفاعلية لدى هذا الإنسان المسلم، وذلك قدره.

إن نجاح تلك الخطابات المغايرة في تشكيل الدوافع لدى الأمم الأخرى، وإحداث التغيير لا يقوم دليلاً ضد ما ذكرنا، بل قد يعزز ما ذهبنا إليه.

ولقد شكل خطاب التغيير الطبقي مجموعة الدوافع التي انتهت بالثورة الفرنسية 1798 وتحت تأثير ذلك الخطاب الطبقي والثورات الطبقية التي نجمت عنه تحققت الثورة البلشفية في روسيا 1917 وبتأثير الخطاب العرقي قامت النازية 1933، وبالخطاب اللاهوتي تأسست البابوية، وبخطاب المزج بين اللّاهوتي والعنصري العرقي تأسست دولة إسرائيل، لكن هذه الخطابات بسائر صيغها وبكل التعديلات التي أدخلت عليها لم يحدث ما استعير منها في الواقع الإسلامي وفي الواقع العربي منه بالذات إلا مزيداً من التفكك والتشرذم والسلبية والتراجع.

وعلى ذلك فإننا بحاجة لأن نوقن بهذه الحقيقة، ونجعل منها أمراً بديهياً شائعاً في أوساط الأمة، وأن لا نملّ التأكيد عليها حتى تستقر في العقول والقلوب والنفوس، وتنطلق بها الألسنة والأقلام لتصبح تياراً أو روحاً يسري في الأمة –كلها– لتحدث حالة الاستعداد للنهوض.

إن "خطاب الإصلاح القرآني" خطاب تُشكّل الأمةُ الشاهدة معالِمَ تطبيقه وتنفيذه وتحقيقه وتثبيته في الواقع بعد خاتم النبيين الشاهد والشهيد، وهي الأمة التي لا تجتمع على ضلالة ولا تجتمع على خطأ فهي ليست حزباً ولا جماعة ولا حركة ولا طائفة ولا جمعية ولا فرقة ناجية، ولا هيئة وصاية، ولا هيئة أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ولا هيئة كبار علماء مهما كبروا، ولا مجموعة المجالس والمجامع، ولا القاعدة، ولا الطائفة المنصورة، ولا منظمة المؤتمر الإسلامي، ولا جامعة الدول العربية، بل هي الأمة كلها باعتبارها أمة وبوصفها

أمة دون افتئات أو مصادرة عليها، أو حديث عنها بالنيابة والوكالة. إنها الأمة القطب بخصائصها الذاتية ومقوماتها الفكرية، وشخصيتها المتميزة، وأرجو أن لا يذهب وَهْمُ أحد إلى أنني أدعو إلى إلغاء سائر التجمعات وتسريح سائر الدعاة، وإنهاء خدمات سائر المؤسسات، حتى ينتشر الوعي لدى الأمة –كلها– بفضل قراءة القرآن المجيد لتقوم قومة رجل واحد فتحدث النهضة، ويتحقق التغيير، لكنني قصدت أنه لابد لخطاب الإصلاح والتغيير لهذه الأمة أن يلاحظ خصائص التكوين عندما يصوغ خطاب التجديد والتغيير.

والقرآن المجيد قد أخذ بأيدينا إلى ذلك، فقد قال تبارك وتعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ. وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: 103–105) فالأمر بالاعتصام بحبل الله جميعاً، ونبذ التفرق والاختلاف جميعاً خطاب شامل للأمة –كلها– لا يستثني فرداً منها بحال، وفي ذلك تحديد للمرجعية الواحدة من ناحية، وبناء لضمير الالتزام الجمعي الشامل من ناحية أخرى بجميع قضايا الأمة وفي ضمائر أبنائها كافة، وتأكيد على ضرورة بناء الإرادة الجماعية الشاملة في قلوب أبنائها جميعاً لتكون أمة، ولتبقى أو تستمر أمة قائمة، وهذه الأمور الثلاثة: (تحديد المرجعية والتأكيد الدائم على ضرورة الالتزام بها، وبناء ضمير الالتزام الجمعي في ضمائر أبنائها كافة، وإيجاد وترسيخ الإرادة الجماعية الشاملة في قلوب أبناء الأمة كافة) تؤدي –كلها– إلى تحديد الرابطة بين أبناء الأمة –كلها– إلا وهي الأخوة، وبيان الوسيلة التي أدت إلى ذلك وهي "التأليف بين القلوب" والتأكيد على أن أي ضعف أو انحراف أو إخلال بمفهوم الأخوة وهيمنته على العلاقة بين المسلمين، أو تجاوز وسيلته الأساس ودعامته الكبرى ألا وهي "التأليف بين القلوب" يعني إنهاء الروابط داخل الأمة والدخول في حالة العداوة وبلوغ شفا حفرة من النار ثم السقوط فيها والعياذ بالله.

تعميق مفهوم الأمة وبناء الإرادة الجمعية

إن ذلك يستلزم أن تتمخض الأركان التي ذكرنا "وحدة المرجعية" وتأكيد "الالتزام الجمعي" بقضايا الأمة وتشكيل الضمير المتابع لذلك، وتحقيق الإرادة الجمعية" وتحقيق "التأليف بين القلوب" للوصول إلى

حالة "الأخوة" أن تنبثق أمة من الأمة، بحيث تكون بعد ذلك الأمة كلها، وتضع في مقدمة أولوياتها بعد أن تحققت هذه الأركان فيها، أن تبلغ بالأمة –كلها– ذلك المستوى، وأن تتحقق من بلوغ الأمة حد الالتزام بهذه الأركان لتكون الأمة –كلها– مهيأة لدورها في الخلافة والعمران آنذاك.

فهذه الأمة تتحرك بالإرادة الجمعية للأمة، لأنها منها فتبقى الأمة هي الكيان لا الحزب ولا التنظيم ولا الجماعة ولا الطائفة، ولا المذهب ولا الإقليم. ولذلك قال تبارك وتعالى ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: 104) فهذه الأمة من الأمة تكونها الأمة للتفاعل معها، ومنها تستمد شرعيتها ووجودها، فهي مثل أعضاء الجسم الواحد أو كريات الدم تؤدي أدوارها في التحام تام بالجسم، ودون انفصال عنه: فالجسم هو الذي يحمل لها الحياة، ويمدها بالحيوية، وهي تؤدي أدوارها فيه، ومن خلال ما ينتجه ذلك الجسم لها، فهما شيء واحد لا انفصام لهما.

وهذه الأمة التي تتكون منا بإرادتنا الجمعية، وباختيارنا الحر تتجسد أحياناً في شكل نظام وأحياناً في شكل تنظيم وأياً كان الأمر فليس من حق النظام أو التنظيم أن يتكون خارج الأمة، أو ينفصل عنها قبل التكوين أو بعده، أو يتجاهل أياً من الأركان التي جاءت بها آية "الاعتصام بحبل الله" فإنْ هو فَعَلَ فسيخلق حالة عداء ويؤدي إلى التفرق والاختلاف، وهذا مرفوض ومردود. ومن المؤسف أن نرى أمتنا بعد أن طال عليها الأمد، وغابت عنها هذه القواعد تعيش بين حالتي استلاب قد أوكلتها إلى نظام يستلبها ويستعبدها ويستبد بها، أو إلى تنظيم يفتات عليها، ويمزقها ويفرض نفسه عليها ناطقاً باسمها أو ممثلاً لها دون أي تشاور أو رجوع إليها، فكأنها تتذبذب بين جور النظام واستبداده، وبين تفرقة وتصنيف وتمزيق التنظيم لها واستعلائه عليها فتستجير بأحدهما من الآخر ولسان حالها يقول:

والمستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

فكل من النظام والتنظيم يجب ويتحتم أن يكون أمة في داخل الأمة، وأمة من ذات الأمة، لا يوجد أي منهما خارجها، ولا يتخلق بمعزل عنها ولا يتجاوز تاريخها ومكوناته. ولا يتجاهل "جدلية" ذلك التاريخ، وهو يتحرك لتغيير ما فيه فيتجه بكليته إلى النظام وحمايته فيتحول إلى مستلب للأمة بالنظام، أو إلى التنظيم فيتحول إلى مفرّق لها، يفرض نفسه عليها، فيثير العداء في صفوفها، والاختلاف والتفرق بين أبنائها.

إن الأنظمة المستبدة – في مختلف أقطار أمتنا المسلمة وأقاليمها لم تأخذ بقوله تبارك وتعالى "ولتكن منكم" فتحولت إلى "عليكم" فصارت متسلطة علينا، مستبدة في شؤوننا مفتاتة علينا، مستلبة لإرادتنا تسوغ ذلك لنفسها بشتى المسوغات، ومنها قصور الأمة أو عجزها عن إدراك مصالحها. وما من أمة مجتمعة إلا وهي أعقل وأحكم من أهل الاستبداد فيها مهما بلغت درجات تعلمهم أو ذكائهم أو تدريبهم، فالزعيم المستبد يمكن أن يضل ويشقى ويخطئ ويجهل، أما الأمة إذا اجتمعت كلمتها، وتمتع أبنائها بحقوقهم، ومارسوا حرياتهم فمهما أخطأت فلن تجتمع على الخطأ، ومهما انحرفت فلن تجتمع على ضلالة.

لكن قيادات النظم والتنظيمات المتجاهلة ل "منكم" والمتسلطة "عليكم" ترى في الأمة أسوأ ما فيها فتستعلي عليها، وتستكبر ثم تستلب إرادتها، وتستمرئ الطغيان عليها فتصبح الأمة –آنذاك– غثاءً كغثاء السيل تلعن حاكميها ويلعنونها ولا يأتي أي منهما بخير.

إن "العبودية" رتبه شرف حين تختص بالله –تعالى– وهي أحط درك حين ينحرف المنحرفون بها وتوجه إلى غير مقاصدها، والاستبداد لا يمكن أن يأتي بخير، ولقد هفا "حكيم الشرق" جمال الدين الأفغاني –يرحمه الله– وهفوات الكبار على أقدارهم حين قال "إن هذه الأمة "المسلمة" لا تصلح إلا بمستبد عادل" ولو تأمل رحمه الله قوله تعالى ﴿كَلا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق: 6-7) لأدرك أن "العدل و"الاستبداد" نقيضان لا يجتمعان في رجل أو نظام، فإما عدل وشورى فينتفي الاستبداد، وإما استبداد فتنتفي الشورى ويختفي العدل. والأمة التي تطاوع على ذلك أمة ناكثة لعهدها، متراجعة عن قولها "بلى شهدنا" ناقضة لعروة من أهم عرى "التوحيد" ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: 172).

ومستقيلة من مهمة الاستخلاف ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 30).

وخائنة للأمانة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾ (الأحزاب: 72).

وراسبة في اختبار الابتلاء ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك: 2).

ومتخلية عن عبادة الله إلى عبادة العباد ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ. فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ. ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النحل: 73-76).

فكل هذه الانحرافات ثمرة لأزمة تصيب الأمة حين تتقبل حالة الاستلاب الطاغوتيّ، سواء أكان من نظام أو تنظيم فهي بكماء خرساء أينما تُوجَّه لا تأت بخير، وهي كَلٌّ على أولئك الذين استلبوها، غثاءٌ كغثاء السيل.

وحين تفقد الأمة ثقتها بالنظام، وتنهار الجسور بينها وبينه، فيبرز فيها الاستعداد لقبول البدائل إن وجدت يأتي التنظيم، ويطرح نفسه بديلاً بين يدي الشعب، ويطرح من الشعارات ما يخلب الألباب، ويسوق انتقادات كثيرة للنظام، ويؤكد بأنه منكم وإليكم، فإذا ما منحت الأمة التنظيم شيئاً من ثقتها سرعان ما تبرز روح "عليكم" للتعبير عن التسلط والوصاية والامتياز وروح الاستعلاء، وكأن صفات النظام تتلبس بالتنظيم، وهنا ينبَّه القرآن الكريم إلى هذه الحالة فيقول تبارك وتعالى ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ. وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ. وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ. يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة: 204-207).

ولتدخل الأمة في حالة السلم لابد أن تتجاوز كل ما يثير عداء سابقاً أو لاحقاً، وكل ما يثير اختلافاً، فالتنظيم الذي لا تتجسد فيه روح "منكم" بكل المعاني التي ذكرناها فإنه سيكون مصدر اختلاف، ومصدر تفرق، يسوغ لنفسه الاستعلاء والافتئات على الأمة، وقد يلوي أعناق النصوص، وينحرف بالخطاب ليدعم سياساته المنبثقة من روح "عليكم" وتصبح الأمة أو الشعوب بين مطرقة استلاب النظم وسندان استلاب التنظيم.

وإذا كان المنطلق القرآني يمكننا من فهم ظواهر الفرقة والاستبداد في واقع الأمة المسلمة، فإنه يمكننا أيضاً من فهم ظواهر علاقاتها مع غيرها، فالتصور العلماني لما يسمّى بالصراع العربي الصهيوني وحسابات القوى الدولية والاستقواء الصهيوني بها لا يفيدنا كثيراً في فهم طبيعة هذه الظاهرة وما رافقها ولا يزال يرافقها من أحداث ومعاناة. والعالم اليوم يشاهد ما يجري في فلسطين من قتل وتشريد وتدمير، ويتخبط الناس في تفسير هذه الظاهرة خبط عشواء، ويعطونها من التفسيرات ما يشاءون، ولها عندنا من هدي القرآن ما يمكن أن يفسرها أو على الأقل يفتح لتفسيرها طريقاً يبساً، يتلخص في أن الله -تبارك وتعالى- قد حمّل بني إسرائيل التوراة فأبوا أن يحملوها، فقال فيهم تبارك وتعالى:﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة: 5) وهؤلاء يواجهون أمة أخرى حُمّلت القرآن فلم تحمله كذلك، وفي الآية الثانية من سورة الجمعة يقول تعالى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ* وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة: 2-3).

فهذه الأمة المسكينة بلغت ذات المستوى الذي بلغه شعب بني إسرائيل حيث حمَّلت الأمة المسلمة القرآن فلم يحملوه إلا بتلك الطريقة الحمارية، نقرؤه على موتانا، وتتسلى به إذاعاتنا، ويتبرك به كسالانا، وتضعه فتياتنا على صدورهن العارية، فما هي النتيجة؟ بنو إسرائيل ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلا بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (آل عمران: 112) وبذات الطريقة حملنا القرآن الكريم فضربت علينا الذلة، ومددنا أعداءنا بحبل انحراف منَّا، حين نزع الله منا أمانة

الاستخلاف، وجعلنا في مواجهة قدرية، وكل من الشعبين في حالة مماثلة للآخر من حيث الرسالة الإلهية، صحيح إن وعد الله حق، وقد وعدنا في سورة الإسراء بأن يرد الكرة لنا عليهم، ولكن بعد أن نحمل القرآن حمل البشر المستخلفين، لا حمل الحُمُر المستذلين، فكلا الشعبين "العربي والإسرائيلي" تم استخلافه في هذه المنطقة من قبل في مرحلتين مختلفتين، وكلٌ منهما تلقى من الله –تبارك وتعالى– كتاباً وحُملَّ رسالة وأمانة، وأمر باتباع ما في الكتاب وعبادة الله تبارك وتعالى، وكل منهما قد تصرف في تاريخ هذه المنطقة وأثر فيها، فبنو إسرائيل تفرقوا لمدة 14 قرناً من حين دخلوا أريحا في القرن 14 قبل الميلاد، وأمتنا قد بدأت هيمنتها على المنطقة مع ظهور الإسلام قبل 14 قرناً كذلك. ثم بدأت الهجمة الصهيونية الحديثة، ووجدنا أنفسنا الآن وجهاً لوجه في ذات المنطقة، وفي إطار مثلث التجوال الإبراهيمي الجغرافي التاريخي، هم معهم المدد الغربي وأهم منه مدد انحرافاتنا وأخطائنا، ونحن معنا مدد البترول والمعادن الكامنة في أراضينا ومواقعنا الاستراتيجية التي قمنا عليها قيام السفهاء الذين نهانا القرآن أن نؤتيهم أموالنا، وتشير آيات الكتاب الكريم إلى هذا الموقف فيقول تبارك وتعالى ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولا. ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا. إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا. عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (الإسراء: 4–8) ومع ذلك فلا يزال الكثيرون من القائمين على النظم، والقائمين على التنظيمات لا يرون أثر فعل الله في هذه الظواهر، ولا يدركونها ولا يلتفتون إلى سنن القرآن وقوانين الحركة في التاريخ والمجتمع، ولذلك يعطون للظاهرة شتى التفسيرات إلا التفسير القرآني لها.

نسأله –تبارك وتعالى– أن يهدينا بالقرآن للتي هي أقوم وأن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا وجلاء همومنا وأحزاننا، وأن يردّنا إليه نظماً وشعوباً وتنظيمات رداً جميلاً، إنه سميعٌ مجيب.